230143 ـ لماذا يرفض المهدي البيعة أول الأمر رغم انطباق الأوصاف عليه ؟

السؤال

أؤمن تماما بخروج المهدي رضي الله عنه آخر الزمان ، ولكن عندي سؤال يحيرني ، وهو : ما الذي يمنع المهدي من معرفة نفسه أو إعلان نفسه ، بمعني أن هناك وصفا دقيقا له ، فإن كان اسمي مثلا أحمد أو محمد بن عبد الله ، وأقنى الأنف ، وأجلي الجبهة ، ومن الأشراف ، فما يمنعني أن أقول : أنا المهدي ، وما الذي يجعل المهدي يفر ممن سيبايعونه عند الكعبة إذا كان به هذه الصفات وهو يعرفها ، وأيضا يعلم أنه سيتم مبايعة المهدي عند الكعبة من خلال الأحاديث الصحيحة ، وسيفر ممن يريدون مبايعته ، وأنهم سيحاصرونه . فهل المهدي يعرف نفسه ؟ وما يمنعه من ذلك ؟ أوليس سيقرأ الأحاديث ، أو حتى سيسمعها ، بما أنه سيكون لديه علم شرعي ، والله أعلم . ولو فرضنا أن الأحاديث عنه مثلا ستختفي ، أو غير ذلك ، فكيف سيعلم المهدي ومن بايعوه والمسلمون في ذلك الوقت أن علامة التأكد منه أنه سيخسف بالجيش الخارج لمحاربته . إذًا فهم يعلمون الأحاديث والبراهين ، فأطلب الإفادة.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

ثمة احتمالات عديدة يمكن أن تجيب على هذا التساؤل :

أولا :

أن انطباق الأوصاف الخلقية والاسمية ، لا يستلزم أبدا أن تنبعث معها في نفس صاحبها عقيدة "المهدية" ، بل إن ما وصف به المهدي من الهدى والتقى والصلاح ، سيؤدي به إلى الفرار من هذه النسبة ، ليس على سبيل التواضع فحسب ، بل من جهة النأي بالنفس عن موارد العجب والتعالي بمقامات الولاية الدينية والدنيوية على الناس ، فهذا دأب الصالحين والمصلحين ، حياتهم مشاعل نور وهداية ، وقيادتهم الناس سلطة أخلاقية تفرضها سيرتهم بين الناس ، وليست سلطة ولاية وبيعة في غالب الأحوال ، وقلوبهم أبعد ما تكون عن أن تظن بنفسها مقاما خاصا دون الناس ، أو منزلة عند الله تعالى أعلى من منازل الناس .

فقد يكون هذا هو حال مهدي آخر الزمان ، لن يمنح الفرصة لنفسه أن تطلب مقام الولاية ، وسيبدأ معها بأسباب الورع والزهد عن كل ما يتنافس حوله الناس من شؤون الدنيا .

وفي نسل آل البيت الكرام ـ عبر التاريخ ـ الكثيرون ممن يحمل اسم محمد بن عبد الله ، ويكثر فيهم أيضا قنا الأنف [ارتفاع وسط قصبته]، وجلى الجبهة [أي اتساعها]، بحكم الوصف الخلقي الوارد للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتب السيرة

. وقد مر بعضهم بأحداث عظام من أحداث التاريخ الإسلامي ، فلم يستوجب ذلك أن يدعي كل منهم " المهدية "، ويقبل البيعة .

بل كثيرٌ مِن مُدعي " المهدية " زورا إنما أتوا من جهة الفتنة ، والاغترار بظاهر الحال ، من الاسم أو الهيئة ، ويصادف ذلك هوى في النفس وإعجابا ، وجهلا بسنن التاريخ ، ومقاصد السنة النبوية في الحديث عن أحوال آخر الزمان ، فيؤدي بهم إلى ادعاء " المهدية " على حساب دماء الناس وأمنهم ومصالحهم ، في حين أن " المهدي " الوارد في السنة النبوية يتحقق وجوده في سياق حتمي ، تدفع إليه ظروف الواقع دفعا ، لا يملك أحد معه رفعه ولا الوقاية منه ، وليس عبر اصطناعه وادعائه ، بتكلف وتنطع ، لمجرد انطباق الاسم على الاسم ، أو الهيئة الخَلقية على ما ورد في الأحاديث .

وهذا أمر غاية في الخطورة ، أدى الغلط في فهمه وتحريه إلى أحداث عظام عبر التاريخ الإسلامي.

ثانيا :

ليس بالضرورة أن يكون المهدي قد اطلع على الأحاديث النبوية التي تبشر به ، وليس بالضرورة أنه يحفظها ويستحضرها ، فهي ليست من أركان الإيمان ، ولا من أركان العمل ، ولهذا فإن بقاءها وحفظها ، واستحضار الناس لها : ليس حتما مثبتا لحفظ الدين ، ولو عاش العبد الصالح حياته كلها بالعلم والعمل والخير ، ولم يعرف أحاديث المهدي ، ولم يطلع عليها ، لم يؤثر ذلك في صلاحه وتقواه ، ولم يستلزم نقصا في علمه وفهمه عن الله سبحانه .

ثالثا :

ومن الاحتمالات الواردة أيضا أنَّ تأخُّر المهدي عن قبول البيعة ، ورفضه لها في بادئ الأمر : يقع منه رجاءً من الله سبحانه أن يكتب له التوفيق والسداد ، والعون والرشاد ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة : (يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا) رواه البخاري (6622) ، ومسلم (1652).

ولم يرد في الأحاديث ما يدل على معرفة المهدي بنفسه من خلال علامات آخر الزمان ، كما لم نجد فيها استدلاله بالخسف الذي يقع للجيش المتوجه إليه على " مهديته " .

ولهذا فإن جميع الاحتمالات التي ذكرناها واردة ، وقد يكون لذلك حكم ، واحتمالات أخرى ، لم ننتبه نحن إليها ؛ والناظم لها أولا وأخيرا قضاء الله سبحانه ، في كونه بمقتضى حكمته ، فهو عز وجل إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه ، وقد قال عز وجل : (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ) الأنعام/18، وقال عز وجل : (إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) يوسف/100، وقال جل وعلا : (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) الإنسان/30.

والله أعلم .